

ولاية قرّة بن شريك على مصر

في ضوء أوراق البردي

في مستهل القرن الحالى وقع حادث عرضى فى مصر ، ترك أعظم الآثار فى تطور الدراسات الخاصة بالتاريخ الإسلامى ، كما فتّح أفقا فسيحة مشرقة أمام الباحثين فى تلك الدراسات والعاملين فى حقولها . ففى سنة ١٩٠١ م كان بعض العمال يحفرون أساس منزل فى قرية كوم اشقاو الحالية ، وتقع بين أبى تيج وطهطا ، ولجأة ظهرت أمامهم فجوة فى الأرض مليئة بأكداس من لفائف البردى ، ومغطاة بقطعة من الحصير .

وسرعان ما انتشر خبر هذا الكنز من أوراق البردى بين أبناء قرية كوم اشقاو ، ووصل إلى مسامع كبار أهلها ، ومن بينهم أخى العمدة ، الذى كان على شىء من الثقافة والدراية أيضاً بقيمة هذا النوع من ورق البردى . إذ سبق لنفر من الفلاحين فى الجهات المجاورة للقرية أن عثروا فى أكوام السباح ، التى قطعوها بفؤوسهم ونقلها إلى حقولهم ، على شذرات من أوراق البردى ، دون أن يحفلوا بأهميتها^(١) . ولكن تجار العاديات فى الصعيد أظهروا اهتماماً بتلك الأوراق ،

(١) عثر بعض الفلاحين سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة مختومة بها ورقتان من أوراق البردى العربية فى مكان بالقرب من أهرام سقارة ، وقام بنشرها المستشرق سلفستر دى ساسى فى مجلة Journal des Savants الصادرة بباريس سنة ١٨٢٥ م . وبعد ذلك تنبه الناس إلى أمر أوراق البردى . وبعد مضى خمسين سنة تم بالفيوم اكتشاف كمية كبيرة من أوراق البردى . ثم تلا ذلك أيضاً اكتشاف أوراق ردى وجدها المنقبون فى أكوام السباح بين تلال أهناس وأخميم والأشمونين والبهنسا .

(أنظر أدولف جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية (القاهرة ١٩٣٠)

وعمدوا إلى الحصول عليها ، مما جعل الفلاحين ينتظرون إلى ما يقع في أيديهم من أوراق البردى بعين الجد والحرص . ولذا ما كاد ينتشر خبر كشف أوراق البردى في كوم اشقاو ، حتى أسرع أخو العبدة إلى مكان هذا الكنز ، وأخذ منه نصيب الأسد ، على حين بادر أهل القرية جميعاً ، كباراً وصغاراً إلى اقتسام البقية الباقية من تلك الأوراق فيما بينهم ^(١) .

وعند ما سمع تجار العاديات والآثار في طما والأقصر وأخميم وأسيوط بما حدث في كوم اشقاو ، جاءوا إلى تلك القرية للاطلاع على محتويات هذا الكنز ، وشراء ما يروق لهم منه . وعرض أولئك التجار ثمناً بخساً في أول الأمر ، لم يلبث أن ارتفع حتى بلغت قيمة ما دفع في اللقافة الواحدة سبعة جنيهات . ولكن أحد التجار فشل في الحصول على نصيب من تلك الأوراق ، واشتد به الألم ، حتى أنه بادر إلى إخبار مقتش الآثار في البلينا بما حدث في كوم اشقاو . ونقل مقتش الآثار هذا النبأ بدوره إلى مأمور طما ، الذي أعد حملة تفتيشية ، انطلقت إلى كوم اشقاو لتحقيق في الموضوع . غير أن هذا الحادث أدى إلى نتائج غير متوقعة ، إذ أمن نفر من الفلاحين في إخفاء ما لديهم من أوراق البردى ، على حين عمد فريق آخر إلى التخلص مما في حوزتهم من البردى بإشعال النار فيه ، ليتجنبوا مسئولية التحقيق والتردد على دار الشرطة . وأخيراً أكتفى رجال الشرطة بوضع حراسة على مكان اكتشاف أوراق البردى ^(٢) .

وبعد بضعة أسابيع من اكتشاف كنز كوم اشقاو ظهرت لدى أحد تجار الآثار والعاديات في القاهرة مجموعة كبيرة مما احتواء هذا الكنز من أوراق البردى ثم لم تلبث أن تسربت بدورها إلى أوروبا حيث استقر القس الأكبر منها في مكتبة المتحف البريطاني ، وتقاسم البقية الباقية متحف برلين وموسكو وهيدلبرج ،

(١) Grohmann. A., From the World of Arabic Papyri (Cairo 1952), 216.

(٢) Grohmann, op cit, 217.

كما نالت دار الكتب المصرية شطراً من تلك الأوراق^(١) . وفي العام التالي لهذا الكشف الهام بدأ العلماء في أوروبا ينشرون ما وقع في أيديهم من هذا الكنز العلمي الثمين . ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ بيكر الذي نشر بعض أوراق البردي في المجلات الألمانية ، والأستاذ بل الذي نشر المجموعة الموجودة في المتحف البريطاني ، والأستاذ جروهمان الذي عكف على نشر أوراق البردي في دار الكتب المصرية . ولم تكن مهمة أولئك العلماء سهلة ميسورة ، وإنما كانت ضعبة وشاقة ذلك أن كثيراً من تلك الأوراق قد امتدت إليها يد البلى والتلف ، مما أضاع جوهر محتوياتها ، على حين أن القسم الداخلي من لفائف البردي متحجراً ، وتطلب فحصه عناية عظمى ، ودقة فائقة^(٢) .

وأدى نشر أوراق البردي الخاصة بكموم اشقاو إلى كشف معلومات هامة تتعلق بتاريخ مصر في القرن الأول الهجري — السابع الميلادي . إذ كانت كل هذه الأوراق ترجع إلى عهد والي الأموي على مصر ، قرّة بن شريك ، الذي عينه الخليفة الوليد بن عبد الملك على تلك البلاد سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م . وانقسمت تلك الأوراق قسمين ، الأول اشتمل على الخطابات أو المراسلات الرسمية التي دارت بين قرّة بن شريك وحاكم كوم اشقاو إذ ذاك ، وكان يدعى « بسيل » من جهة وبين أهالي القرى التابعة لكموم اشقاو من جهة أخرى . أما القسم الثاني فهو عبارة عن قوائم للخراج وسجلات تحوي أسماء نفر من أهل القرى وبيان

I bid , 217, 218,

(١)

(٢) لم تكن أوراق البردي التي تم اكتشافها سليمة خالية من العيوب ولذا لم يكن نشرها سهلاً ميسوراً . فالأجزاء النفيسة وجدت — كما قال الأستاذ جروهمان — « متلاصقة متماسكة إلى حد يقرب من تحجرها أو مطموسة بالتراب ، أو ملقاة في ناحية أو هذا غير ما يصل إلينا مرقاً كله أو بعضه من فعل رطوبة الأرض أو من فعل النيران ... والأدهى من ذلك حين يدفع الطمع التجار الذين اعتادوا شراء البردي أو أولئك الذين يجدون بعض أوراق بردية ، فيعمدون إلى فصل شذرات مختلفة إما تعمداً أو بدون علم وقصد سيئ » .

أنظر جروهمان ، المرحع السالف ، ص ٤ و ٥ .

بأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . ثم اتضح من دراسة هذه الأوراق أيضاً أن بعضها كان مدوناً باللغتين اليونانية والقبطية ، والبعض الآخر مدون باللغة العربية .

ومن دراسة أوراق البردى السالفة الذكر ظهرت عدة نتائج هامة ، أولها أن صناعة ورق البردى في مصر ظلت رائجة ومتقدمة في القرن الأول الهجري ، أى بعد دخول البلاد في نطاق العروبة والإسلام . فاستمرت المصانع المصرية تؤدي رسالتها في هذا الميدان الهام ، على نحو ما قامت به منذ أيام الدولة القديمة ، وزودت شتى جيرانها ، ولا سيما بلدان البحر المتوسط بهذا العنصر الهام من عناصر الكتابة وبناء الحضارة الإنسانية كذلك^(١) .

أما النتيجة الثانية فهي أن أوراق البردى التي اكتشفت في كوم اشقاو صححت كثيراً من المعلومات التي وردت في كتابات المؤرخين المسلمين عن الإدارة العربية وعملها في مصر وغيرها من البلاد على عهد الدولة الأموية . ومن ذلك أن المراجع التاريخية صورت «قرة بن شريك» والى مصر على أنه مثال للقسوة والجور وسوء الإدارة . فترك المؤرخ ابن الأثير مثلاً : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد ابن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ! »

(١) اشتهرت مصر بنبات البردى ، منذ أقدم العصور ، حيث كان يلعب في الحياة الاقتصادية في مصر القديمة نفس الدور الذى يلعبه القطن في مصر الحديثة . وانتشر هذا النبات في مستنقعات الدلتا ، حيث غطى مساحات واسعة منها ، منذ عهد المملكة المصرية الوسطى ، ولم يخف لا في القرن العاشر الميلادى ، حيث كف الناس عن زراعته . وكانت طريقة صناعة ورق البردى في العهد العربى هى نفس الطريقة التى اتبعها المصريون القدماء ، وذلك باستخراج لب البردى « فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ، ويقطعونها قطعاً قطعاً ، توضح كل قطعة منها إلى لصق صاحبها على لوح من خشب ، أملس ، ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونه بالماء ، ويضعون تلك اللزوجة على كل قطعة ، ويتركونها حتى تجف جداً ، ويضربونها ضرباً لطيفاً قطعة خشب تشبه الأرزبة صغيرة حتى يستوى من الخشن ، فتصير في قوام الكاغد » .

أنظر حرومان ، نفس المرجع : ص ١١ ، حاشية (٢) .

وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح
الناس^(١) . وقال المؤرخ أبو المحاسن : « كان قرّة بن شريك من أمراء
بنى أمية ، وولاه الوليد مصر ، وكان سيئ التدبير ، خبيثاً ، ظالماً ، غشوماً »
ثم أضمن هذا المؤرخ في إصااق التهم بالوالى قرّة بن شريك ، فنسب إليه الفسوق ،
وخاصة عندما كان العمال يشتغلون بتوسيع مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ،
فقال : « وكان الصناع إذا انصرفوا من بناء الجامع دعا [قرّة] بالخمور والزمور
والطبول ، فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، ويقول لنا الليل ، ولهم
النهار^(٢) » .

غير أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو تهدم هذه الاتهامات
السالفة الذكر ، وتوضح أن قرّة بن شريك لم يكن ظالماً ، بل عادلاً ، وليس
سيئ التدبير ، وإنما هو مثال للحاكم القدير ، الحريص على سير الإدارة سيراً
حسناً وسليماً . فتبين أوراق البردى عطف قرّة على أفراد الشعب صغيراً كان
أم كبيراً ، وإشرافه الدقيق على سلوك كبار الموظفين ، ومعاينة المسيء منهم
بأشد ألوان العقاب .

ويبدو أن اشتداد قرّة فى إدارته ، وهو الأمر الذى أثار حوله الاتهامات التى
رددتها المراجع التاريخية ، يرجع إلى تقلده أعنة الأمور فى مصر ، بعد أن اشتد
فيها الفساد على عهد سلفه ، والوالى عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد نفسه .
فاشتهر الوالى عبد الله بسوء الإدارة ، وشاعت حوله الاتهامات ، وأنه يرتشى ،
وينهب الأموال العامة فى مصر ، حيث يجمع الخراج أكثر من مرة ، ويغالط
أصحاب الحقوق عند دفعهم للضرائب . وزاد الحالة سوءاً انخفاض النيل على عهد
هذا الوالى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م ، مما ترتب عليه غلاء الأسعار ، وتلاعب التجار

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ (ليدن ١٨٥١) ص ٢٤٢ .

بأقوات الناس^(١). ولما كانت الخلافة توضع مصر في المكانة الأولى من اهتمامها ، فقد استدعى الخليفة الوليد أخاه عبد الله إلى دمشق سنة ٥٨٨ / ٧٠٧ م وأبقاه عنده مدة من الزمن ، يدرس معه أحوال البلاد ، ثم رده إلى ولايته بعد أن رسم له أمثل السبل لإصلاح ما فسد من الأمور .

ولكن الوالى عبد الله بن عبد الملك عاد إلى سيرته الأولى حين دخل مصر ثانية ، حتى ضج الناس ، وكثر فرار أهل القرى من أراضيهم ، والتخلى عن مزارعهم وحقولهم فراراً من الضرائب وازدياد الأعباء المالية التى وقعت على كاهلهم . ولذا لم يكن أمام الخليفة الوليد غير عزل أخيه عبد الله عن مصر^(٢) ، وإسناد ولايتها إلى شخص قدير على رأب الصدع ، والمحافظة على سلامة هذه البلاد ، التى تعتبر عصب الدولة الأموية والعمود الفقرى لنشاطها . واختار الخليفة قرة بن شريك الذى دخل مصر^(٣) سنة ٥٩٠ / ٧٠٩ م واستهل فيها نشاطه العظيم ، الذى سجلته أوراق البردى .

(١) الكندى ، ولاية مصر وقضائها (طبعة روثن كست - ١٩٠٨) ، ص ٥٨ ، ٥٩ . وقال فى ذلك : وفى ولايته ، غلت الأسعار بمصر ، فتشاءم به المصريون ، وهى أول شدة رأوها ، وزعموا أنه ارتشى ، وكثروا عليه وسموه مكيساً .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .

(٣) وصف الكندى وصول قرة بن شريك إلى مصر قائلا : « فأقبل قرة بن شريك على أربع من دواب البريد فنزل بباب المسجد ، ونزل أصحابه ، فدخل فصلى عند القبلة ، وتحول ، فجلس أصحابه عن يمينه ويساره ، فأتاهم حرس المسجد وكان له شرط يذبون عنه ، فقالوا : إن هذا مجلس الوالى ، ولكم فى المسجد سمة . قال : وأين الوالى ؟ ، قالوا : فى متنزه . قال فادع خليفته . فانطلق شرطى منهم إلى عيسد الأعلى [خليفة الوالى] فأعلمه . فقال أصحابه : أرسل إليه يأتيك صاغراً . قال : ما بعث إلى إلا وله على سلطان ، امرجوا ، فركب حتى أتاه ، فسلم ، قال : أنت خليفة الوالى ؟ ، قال : نعم . قال : انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال ... وكتب إلى عبد الملك يعلمه (أى بوجود قرة) ؛ فأتاه الخبر وقد أهديت له جارية ، فبكى ، ولبس خفه قبل سراويله دهشاً » .

أنظر الكندى ، ولاية مصر وقضائها ص ٦٢ ، ٦٣ .

وهنا تبدأ المراسلات التي دارت بين قرّة بن شريك وبين بسيل صاحب كوم اشقار وغيره من العمال ، تشرح اهتمام الوالى بأن يسير رجال إدارته سيراً عادلاً وأميناً ، فجاء فى إحدى البرديات رسالة بعث بها قرّة إلى عامل له ، يحضه فيها على الأمانة ، فقال : « إني قد بعثتك حين بعثتك على عملك ، وأنا أرجو أن تكون عندك أمانة . . . وتنفيذاً للعمل ، فكن عند أحسن ظنى بك ، فأنى والله ، لأن تكون محسناً مجللاً أميناً موقراً ، وأحب إلى وأعجب عندى من أن تكون على غير ذلك . لا تعين نفسك ، ولا تسيئن عملك ، واستعن بالله ، فإنه من ينفذ الإصلاح ويرى الأمانة ، يعنه الله ويصلح له عمله . ثم أقدم على بكل كتاب ترى أنى سائل عنه من عمل أرضك ، والسلام على من اتبع الهدى » (١) .

وتفيض أوراق البردى بعد ذلك فى بيان حرص قرّة على أن تأخذ العدالة مجراها ، وأنه فتح باباً لكل صاحب مظلمة ، وأنه كتب إلى عماله ألا يحولوا بينه وبين أى شخص يريد أن يشتكى إليه أمراً من الأمور ، مهما كان صغيراً . ومن ذلك ما تشير إليه البردية التالية ، والتي بعث بها قرّة إلى بسيل ليعيد حقاً ضائعاً لصاحبه ، وجاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه ، فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد : فإن مرقس بن جريج أخبرنى أنه كان يسأل نبطياً من أهل كورتك ثلاثة وعشرين ديناراً وثلاث دينار ، فيزعم أن النبطى مات ، وأنه أخذ ماله نبطى من أهل قريته وغلبه على حقه ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن أقام البينة على ما أخبرنى ، فانظر من أخذ ماله ، فعليه دينه ، ولا يظلمن عبدك ، إلا أن يكون

(١) Bell, Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam) II, 282;

سيدة كاشف (دكتورة) ، مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧) .

شأنه غير ذلك ، فتكتب إلى به ، ولا تكتب إلا بحق ، والسلام على من
اتبع الهدى^(١) .

وكذلك عمد قرّة إلى معالجة مسائل التموين التي اضطرب شأنها نتيجة ما حدث
في عهد سلفه من انخفاض للنيل وتلاعب التجار بأرزاق الناس . فتشير أوراق
البردى إلى عنايته بإعداد شحنات الغلال في وقت مبكر ، وإلغاء الضرائب التي
يدفعها تجار الغلال أيضاً حتى يشجعهم على أداء مهماتهم في رضى وقناعة . فجاء
في إحدى البرديات التي بعث بها قرّة إلى بسيل يطلب منه سرعة إرسال التجار
بالغلال إلى القسطاط ، قائلاً له : « فإنى قد وضعت عنهم مكسه ، فليبايعوه
بالقسطاط ، وعجل ذلك ، فإنى قد خفت غلاء الطعام بالقسطاط . وإنى إذا
وصفت للتجار مكسهم أصابوا ربحاً . وإنما الحصاد إن شاء الله في أربعين ليلة
أو قريب من ذلك . فعجل ما كنت باعثاً به من ذلك ، واكتب إلى كيف
فعلت في ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام ، والسلام على من
اتبع الهدى^(٢) .

وإلى جانب تدبير المؤن في البلاد . أظهر قرّة منتهى الحزم في إقرار الأوضاع
في القرى^(٣) ، وإعادة أهلها الذين هجروها على عهد سلفه . فأنشأ قرّة هيئة خاصة

Grohmann, op cit, III, 30, 31

(١)

Ibid, , 8, 9

(٢)

(٣) ويوضح ذلك نص البردية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم
من قرّة بن شريك الى بسيل صاحب أشقوة ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد
فإن هشام بن عمر كتب إلى يذكر جالية (أى هاريين) له بأرضك ، وقد تقدمت إلى العمال ،
وكتبت إليهم ألا يؤد جاليا ، فإذا جاءك كتابى هذا فادفع إليه ما كان له بأرضك من جالية ،
ولا أعرفن ما رددت رسله أو كتب إلى يشتكيك ، والسلام على من اتبع الهدى .

أنظر : Grohmann, op cit, 23, 24

لوقف حركة الهجرة من القرى^(١) ، ولتعيد كل شخص إلى موضعه ، كما دأب على إرسال مندوبين من قبله إلى مختلف الجهات للفتيش عن الهاربين ، ويطلب من عماله على المدن والقرى تقديم كل مساعدة ممكنة لهم ، ويحثهم على مراقبة أولئك المندوبين ، حتى لا يقبل فرد منهم أية رشوة ، ثم يهدد بإيقاع أشد ألوان العذاب لسكل من تثبت عليه تلك التهمة الشنيعة^(٢) .

وإذا انتقلنا من تصوير أوراق البردي لشخصية قرّة بن شريك وسياسته الحازمة في مصر ، نرى أن تلك الأوراق تصور لنا خطوة هامة ، تمت على عهد هذا الوالى ، وهى استقرار الإدارة العربية في مصر في القرن الأول الهجرى ، وما صاحب ذلك من تعريب للدواوين وتنظيم لشئونها . فيتضح من أوراق البردي أن العرب اكتفوا في مصر بشغل المناصب الرئيسية ، حيث جمع الوالى في يده سلطات واسعة وأن البلاد قسمت إلى أقسام تعرف باسم « الكور » ، وهى تشبه الأقسام التى عرفها البيزنطيون في مصر باسم « البجارشى » (Pagarchie) ، وأطلق على حاكم كل قسم في الإدارة العربية اسم « صاحب الكورة » ، وهى تسمية مرادفة للكلمة البيزنطية بجاركوس^(٣) . وكانت كوم اشقاو مقراً لحاكم الكورة التى نسبت إليها ، والتى دونتها أوراق البردي باسم « اشقوه » . فكان قرّة يرأسل باسيل « صاحب اشقوه » ، وهى تسمية عربية حلت محل اسم المقاطعة المعروفة باسم « افروديتى » فى ظل الإدارة البيزنطية لمصر . وترك العرب حكام « الكور » من رجال الإدارة القديمة ، مع وضعهم تحت الرقابة الشديدة ، على حين شجعوا رجال الإدارة من الأقباط على تعلم اللغة العربية ، وأتاحوا لهم كافة أسباب الطمأنينة وفرص التقدم .

(١) سيده كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) Bell, op cit II, 270, 274, 245;

سيده كاشف ، نفس المرجع ص ٢٢٨ .

(٣) سيده كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ — شعيرة (دكتور) ، اختصاصات صاحب الكورة فى القرن الأول الهجرى حسب مجموعة أفرودتو البردية (مجلة كلية الآداب — جامعة اسكندرية — مايو ١٩٤٣) باللغة الفرنسية .

وارتبط بهذا التنظيم الإداري جانب هام ، كشفت عنه أوراق البردي وهو تعريب الدواوين . والمقصود بذلك ديوان الخراج ، وهو الخصاص بالمالية العامة . إذ كانت اللغة المتبعة في هذا الديوان قبل الفتح العربي هي اليونانية والقبطية ، وظل الحال على ذلك حتى عهد الوالي عبد الله بن عبد الملك ، حيث أمره الخليفة بنقل هذا الديوان إلى العربية^(١) . وتوضح لنا أوراق البردي الخطوات التي سار عليها رجال الإدارة في تنفيذ هذا العمل الهام . إذ أمر قرعة بن شريك بأن تكون لغة الديوان المركزي في القسطنطينية هي العربية ، وكذلك المراسلات التي تخرج من هذا الديوان إلى أصحاب الكور وعماها . وجرت العادة في هذه المرحلة المبكرة من تعريب الدواوين على أن توضع مع المكاتبات العربية ترجمة لها باليونانية أو القبطية ، حتى تسهل المهمة على العمال الذين لم يجيدوا العربية بعد .

وتزود أوراق البردي الباحثين في تطور اللغة العربية في مصر بمادة قيمة ، من حيث طريقة الكتابة ، وكذلك دخول ألفاظ غريبة إلى ميدان تلك اللغة . فاشتملت أوراق البردي العربية على كلمات أجنبية مثل « جسطلال » ، وهي محرفة عن اليونانية ، ومعناها الموظف المشرف على مالية الكورة ، وكذلك كلمة « موازيت » ومعناها رؤساء أو مشايخ القرى^(٢) . إذ تؤكد هذه الظاهرة اتساع اللغة العربية لقبول مفردات جديدة ، كما توضح صلاحيتها للتطور ومواجهة مطالب الحياة على مر الزمن .

(١) الكندي ، ولاية مصر وقضائها ، ص ٥٨ .

(٢) جاء في إحدى مراسلات قرعة إلى صاحب اشقوة :

« فإذا جاءك كتابي هذا ، فلا أعرفن ما استوفيت من الجزية بعد الذي ترسل ، بما قد جمعت من الجزية ديناراً ولا نصفاً ولا ثلثاً ، إلا ما كان على وزن بيت المال ، ونفذت في ذلك إلى جسطلال كورتك وإلى موازيت القرى » .

أنظر 17 op cit Grohmann ;

سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

وتشرح أوراق البردى نظام جباية الخراج في مصر ، وعدالة الإدارة العربية في تقدير المطلوب من البلاد . ذلك أن العرب وإن احتفظوا ببعض عمال الإدارة البيزنطية في مصر ، إلا أنهم تجنبوا المظالم والمساوىء التي اتبعها أولئك العمال في تقدير الضرائب وجمعها . فأكدت أوراق البردى الحقائق التي أشارت إليها المراجع العربية في اعتماد الإدارة الجديدة على أهالي القرى والبلاد في تنظيم الأموال العامة التي يقدمونها للدولة ، مع مراعاة المصالح الفردية والعامة أيضاً (١) .

فبنى قرى بن شريك يرسل تعليمات إلى صاحب كورة اشقوه ، يطلب منه أن يجمع رؤساء كل قرية وكبار رجالها ، ليختاروا من بينهم نفرًا من المشهود لهم بالذكاء والأمانة ، ليتولوا تقدير الضرائب عن قريتهم . وكان يعد سجل خاص عما يتم عليه اتفاق هذا نفر من عليّة القوم ، ثم ترسل صورة منه إلى الديوان المركزي بالقساط لمراجعتها ، ووضع التقدير النهائي على أساسها . وكان قرى ينذر كل فرد من المشتركين في هذه العملية بأشد العقاب إذا أهمل أو تسبب في إلحاق أذى بالناس عند تقدير الضرائب . وتطلب هذا الأمر ذكر محل إقامة كل من اشترك في تقدير الضرائب ، في نفس السجل الذي يتم إعداده ، حتى يمكن الرجوع إليه إذا ما اقتضى الأمر ذلك (٢) .

وأظهرت أوراق البردى أن الخراج في مصر كان يدفع عيناً ونقداً ، وأن الجزية كانت تدفع نقداً ، مع مراعاة ثروة كل شخص ، حتى لا يضار أحد ، أو يدفع شيئاً أكثر من طاقته . وكانت هذه الجزية تدفع بالدنانير وكسور الدينار

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (تحقيق عبد المنعم عامر) ، ص ٢٠٦ .
« وكان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر [بمصر] أقر قبضها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومدوتها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العماره والخراب ، حتى إذا أقرروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى ، وسعة المزارع » .

(٢) Bell, op cit, 282 — سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٦٠ .

فدأب قرّة على إرسال الأوامر إلى صاحب اشقوة يطلب منه إرسال كشوف بالنواحي التابعة له لمعرفة عدد الرجال بها ، الواجب عليهم الجزية ، مع بيان ثرواتهم ومصادر دخلهم (١) .

وأوضحت أوراق البردي أيضاً تنظيم قرّة بن شريك لديوان الجند ، واهتمامه بأرزاق الجند كذلك . والمعروف أن هذا الوالي يعتبر المنظم (٢) الثالث لهذا الديوان بعد عمرو بن العاص ، وعبد العزيز بن مروان . وكان عطاء الجند يتطلب جمع « ضريبة الطعام » ، والتي اشتملت على القمح والزيت والعسل ، وأنواعاً أخرى من الأطعمة . وحرص قرّة على جمع هذه الضريبة حتى يطمئن الجند لأرزاقهم ، ويستطيعون بالتالي القيام بواجباتهم على خير وجه . وتوضح البردية التالية الحقيقة السالفة الذكر ، إذ جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال ، والذي قد حضر من عطاء الجند وغيالهم وغزو الناس ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ في جمع المال ، فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر ، ثم عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول فإنه لو قد قدم إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله فلا تكونن آخر العمال بعثاً بما قبله ، ولا ألومك في ذلك ، والسلام على من اتبع الهدى (٣) » .

Grohmann, op cit, 48, 49

(١)

سياسة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الكندي ، نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

Grohmann, op cit, 12,13

(٣)

واقترضى تنظيم ديوان الجند مراجعة السجلات المدون فيها الأسماء بالنواحي المحلية ، حتى تستطيع الإدارة المركزية بالفسطاط منح الحقوق لأصحابها ، دون أن تضار المالية العامة . ويدل على ذلك البردية التالية ، إذ جاء فيها ما نصه :

» بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة .

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن أناساً من الجند ذكروا لي كتيبة من قريتهم كانت تجرى عليهم منذ أربعين سنة ، ولم نجد شيئاً من الكتب ، فلا أدري ما صدق ذلك من كذبه ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فلا تقدم من قرية من كورتك إلا سألت أهلها عما في قريتهم من تلك الكتيبة ، وإن هي ، فإذا عامت ما في كل قرية منها ، فأرفع إلى كتاب ما وجد من ذلك في كل قرية وتكتبين لكل رجل كتاباً بما سأله مني (١) .

وكشفت أوراق البردى عن جانب هام في الإدارة العربية أيضاً ، وهو وجود « ديوان البريد » في مصر ، منذ القرن الأول الهجري ، وأنه كان يؤدي نفس الأغراض التي نهض بها هذا الديوان في أزهي عصوره . والمعروف أن « ديوان البريد » لم يكن ينقل المراسلات العامة للناس على نحو ما هو متبع اليوم ، وإنما كان هيئة حكومية ، تشرف على المراسلات الرسمية ، كما ينهض رجالها بمراقبة العمال في شتى النواحي ، أشبه بقلم الخبايا في الوقت الحاضر . واعتمد قرّة على رجال هذا الديوان في تنظيم أمور ولايته ، وإبعاد الأذى الذي يحاول أى عامل أن ينزله بالناس ، وذلك على نحو ما جاء في البردية التالية :

» بسم الله الرحمن الرحيم .

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة ، فإني أحمد الله الذي لا إله

إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لى أنك أخذت قرأ
فى أرضك بالذى عليهم من الجزية (١) ، فإذا جاءك كتابى هذا فلا تعترضن أحداً
منهم بشىء حتى أحدث إليكم فيهم إن شاء الله ، والسلام على من اتبع الهدى (٢) .

وبذلك منع قررة وقوع الغرامة على رعاياه ، وأثبت أنه وال يقظ ، بفضل
عامل البريد ، الذى صار يمثل عين الحكومة وأذنها فى شتى النواحي .

على أن أروع جانب كشفت عنه أوراق البردى الخاصة بعهد قررة بن شريك .
هو الدور العظيم الذى أسهمت به مصر ، منذ القرن الأول الهجرى فى بناء
البحرية العربية والنشاط الحربى الذى قامت به هذه البلاد أيضاً فى الدفاع عن
الدولة العربية الفتية . فكانت الأوامر التى بعث بها قررة بن شريك إلى بسيل
صاحب اشقوة تطلب منه إرسال البحارة والمقاتلين للعمل فى وحدات الأسطول
المصرى الزاهب إلى قاعدة إفريقية ، وكذلك إلى قاعدة اللاذقية فى المشرق .
وذلك فضلاً عن مطالب الأسطول المصرى الرابض فى الميساء الإقليمية لهذه
الولاية . والمعروف أن السفن الحربية المصرية خرجت سنوياً للدفاع عن الشام
وشمال أفريقيا ، وأسهمت مع أساطيل تلك الولايات أيضاً لصد خطر الروم وتقليم
أظفارهم . وتوضح أوراق البردى انتظام هذه الحملات ونشاطها ، والدور الجليل
الذى قام به رجالها .

وتوضح تلك الأوراق البردية بذلك استعدادات الدولة العربية على عهد
الوليد للقيام بحرب شاملة ضد الدولة البيزنطية ، وتمهيد الطريق أمام الأسطول
العربى ، الذى كان على وشك الانطلاق نحو العاصمة البيزنطية . والمعروف أن

(١) أى فرضت عليهم غرامة .

الوليد توفى دون إتمام هذه المشاريع ، وترك لخليفته سليمان بن عبد الملك أسطولاً عظيماً يسوده التعاون بين وحداته الكبرى في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأن هذا الأسطول المتحد اشترك في حصار القسطنطينية الكبيرة .

وكانت دور الصناعة في مصر تتلقى من الكور ما يساعدها على بناء السفن ومعدات القتال البحري ، على نحو ما تفيض به أوراق البردي وما تضمنته من مراسلات قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب كوم اشقاو . إذ تفيض الأوامر بطلب الأخشاب والمسامير والحبال ، ومهرة الصناع إلى غير ذلك مما تحتاج إليه دور الصناعة في بابليون (جزيرة الروضة فيما بعد) والأسكندرية ، والقلم . وتسهب البرديات في ذكر أجور العمال الفنيين وغير الفنيين ، والمقادير المطلوبة من كل صنف ، مما يشهد بدقة الإدارة العربية على عهد قرّة بن شريك .

وأخيراً نرى أوراق البردي توضح الدور العظيم الذي قام به الصناع المصريون في تعمير الدولة العربية إلى جانب الدفاع عن حياضها . إذ اشتملت المراسلات التي بعث بها قرّة بن شريك إلى صاحب اشقوة على طلب عمال يشتغلون في بناء جامع دمشق وجامع بيت المقدس ، مع دفع أجورهم مقدماً . وجاء في إحدى البرديات أيضاً أمر من قرّة إلى صاحب اشقوة بأن يبعث عدداً من الرجال الفنيين للعمل في قصر الخليفة بدمشق^(١) . والمعروف أن هذا الخليفة كان مغرمًا بالبناء ، واستدعى من أجل ذلك مهرة العمال من كل مكان ، حتى من الدولة البيزنطية نفسها . ومن ثم فإن أوراق البردي تشهد بمهارة المصريين في فن العمارة في هذا العصر المبكر من تاريخ الدولة العربية ، وأن ولاية قرّة بن شريك صارت بفضل تلك الوثائق البردية التي اكتشفت في كوم اشقاو ، مثلاً أعلى لما قامت به

(١) Bell, Translation of the Greek Papyri (Der Blam) II, 274, III, 133, IV, 93, 95; سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مصر من جليل الخدمات في ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، وإعلاء شأنها .
وفي نفس الوقت أكملت أوراق البردي بعض الصور الباهتة المعالم التي حاولت
المراجع العربية رسمها عن الحياة في مصر ، بشكل أروع وأبهى ، « إذ يقينا
لا يوجد مؤرخ مهما كان كثير التعمق في التفاصيل ، ولا قصصى أوجامع للحكايات
أو كاتب يمكنه كشف القناع عن وصف دقائق الحياة في تلك العصور الخوالى
بمثل ما تحدثنا به هذه الأوراق التي أخرجت من أرض مصر . إذا من هنا نتيبن
الأهمية ، لأنها المعين الصحيح والمصدر الصادق لتاريخ الحضارة الإسلامية
في العصور الزاهية في العالم الماضى » (١) .

ابراهيم أحمد العروى

(١) جروهمان ، المحاضرة الأولى من الأوراق البردى ، ص ٩ .